مكماهون للعرب في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٥ ، وان لم يتضمن جهارا فلسطين بكاملها ، فانه لم يستبعدها استثناء ، وفي الاتفاق الذي تم في عام ١٩١٦ بين روسيا وبريطانيا وفرنسا أبقيت فلسطين جانبا لاقامة نظام دولي فيها بعد التشاور مع شريف مكة . وفي ضوء هذه الظروف والاحوال ، كان اعلان بريطانيا عن تحبيذها لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين خطأ سياسيا وأخلاقيا فاضحا ، اذ أنها أغفلت اغفالا تاما أن تأخذ في الحسبان أمر سكان فلسطين العرب أو استشارة أي من زعمائهم ، ناهيك عن حليفها المخلص شريف مكة .

كان اللورد كرزون وحده بين المسؤولين البريطانيين آنئذ، وهو نائب الملك في الهند سابقا والوزير البارز في وزارة الحرب ، الذي توقف بعض الوقت عند المضامين والمغازي التي ينطوي عليها وعد بلفور ، مبينا أثناء جلسة مناقشته في الوزارة البريطانية أن في اعطاء هذا الوعد افتئاتا على حقوق ومصالح اسلامية وعربية أساسية . فقد قال حسبما ورد في سجل وقائع الاجتماع الذي جرى في ١٩١٧/١٠/٤ : « كيف يعقل ان يقترح التخلص من أغلبية السكان الحاليين المسلمين واحلال يهود محلهم ؟ وهو يرى أن تأمين حقوق مدنية ودينية متساوية لليهود المقيمين في فلسطين سياسة أفضل من العمل على اعادة اليهود الى فلسطين على نطاق واسع ، وهو أمر يعتبره من مظاهر المثالية العاطفية التي ينبغي الا يكون لحكومة صاحب الجلالة شأن بها من قريب أو بعيد » .

وقد بلور كرزون وجهة نظره في مذكرة قدمها الى الوزارة ومؤرخة في ١٩١٧/١٠/٢٦ ، أوضح فيها بجلاء المكانة التي تحتلها مدينة القدس في دنيا الاسلام والمسيحية ، ويشير الى المشكلة الانسانية التي ينطوي عليها وعد بلفور اذ يقول : « يوجد هنالك ما يزيد على نصف مليون من العرب السوريين ... وقد استوطنوا هم وأجدادهم البلاد منذ قرابة ١٥٠٠ عام ، وهم أصحاب الارض التي يتقاسم ملكيتها الملاكون الفرديون والمجتمعات القروية ، ولن يرضى هؤلاء بمصادرة أراضيهم وانتزاعها منهم لتسليمها للمهاجرين اليهود ، او ان يكونوا مجرد حطابين وسقائين لهم » .

وفي اجتماع الوزارة البريطانية بتاريخ ٣١ تشرين الاول أوضح بلفور نفسه ما يفهمه من التعبير « وطن قومي يهودي » : يعني شكلا من أشكال الحماية البريطانية او الاميركية او غيرهما « تتوفر لليهود في ظلها مرافق وتسهيلات كافية تتيح لهم بناء مقومات خلاصهم الذاتي غيرسون بالمؤسسات التربوية والزراعية والصناعية قواعد مركز حقيقي للثقافة القومية وموئلا للحياة القومية . وهو لا ينطوي بالضرورة على تأسيس دولة يهودية مستقلة في أمد قريب ، اذ يتوقف هذا الامر على التطور التدريجي وفقا لسنة التطور السياسي المعهودة » .

لا ريب ان بلفور كان يتمتع بالقدرة على عرض الامور بوضوح ، ولكنه كان ايضا مبرزا في طمس الحقائق وتشويهها بشكل فاضح . ففي اجتماع مجلس الوزراء في ١٩١٧/١٠/٤ ادعى ، ضمن ما ادعاه ، ان الرئيس الاميركي آنذاك ، ودرو ويلسون ، كان يحبذ اصدار وعد بريطاني يعلن العطف على التطلعات الصهيونية . وفي الاجتماع ذاته تصدى اليهودي ادوين مونتاغو وزير الدولة لشؤون الهند لبلفور واظهر ما في ادعائه ذاك من مخاتلة وتناقض ، اذ بين ، مستشهدا بالكولونيل هاوس ، أن الرئيس الاميركي ويلسون كان ، عندئذ ، يعارض اصدار مثل هذا الوعد .

وقد تكون أفظع مغالطات بلفور وتشويهاته للحقائق تأكيده بأن غالبية اليهود في روسيا يؤيدون التطلعات الصهيونية متجاهلا ، بذلك ، تجاهلا تاما نصيحة السفير البريطاني في روسيا الذي طلب منه أن يبدي رأيه فيما اذا كان الوعد المقترح سيساعد قضية الحلفاء ، فكان جوابه انه « يشك شكا بالغا » في ذلك ، لانه « لا يوجد بين اليهود في